المحاضرة رقم 3: أدب السير في السرد العربي القديم:

يحتل أدب السير مكانة متميزة عند العرب منذ القديم، لما له من رصيد وافر في الثقافة الشعبية العربية، فهو ذاكرة هذه الأمة وسجلها الثقافي الذي يعكس تاريخها العريق وتجاربها المتنوعة التي تناقلتها الذاكرة العربية جيلا عن جيل، مما خلف أعمالا خلدها التاريخ أرخت لحياة بعض العظماء ، فقد مثلت الكتابة السيرية شكلا من أشكال التوثيق والتعبير، تجمع بين البعد التاريخي والبعد الأدبي وتتقاطع فيها الحقيقة بالخيال، والواقعي بالرمزي.

- ✓ مفهوم السيرة:

جاء في لسان العرب السيرة مأخوذة من سار يسير سيرا و هي "السنة"... والسيرة "الطريقة الحسنة" يقال: سار بهم سيرة حسنة، و السيرة "الهيئة"..وفي القرآن يقول الله تعالى » **سنعيدها سيرتها الأولى** «. وسير سيرة: حدث أحاديث الأوائل.وسار الكلام والمثل في الناس: شاع ويقال: هذا مثل سائر، وقد سير فلان أمثالا سائرة في الناس ، وسائر الناس جميعهم" أي هي الطريقة والسبيل والمسلك والنهج والسنة المتبعة... أو الحالة التي يكون عليها الإنسان في حياته (سواء حسنة أو سيئة)، والسيرة في مفهومها الاصطلاحي

ونظرا لأهمية هذا الفن الأدبي في حفظ حياة الأشخاص ومعالم عصورهم، أولاه العرب عناية خاصة ، وترجموا حياة العديد من الأعلام الذين برزوا في مختلف مجالات العلوم والمعرفة.." فالسيرة ليست مجرد تسجيل لحياة الإنسان أو بحث يستعرض

فيه الكاتب حياته أو حياة غيره بل هي فن أدبي يتناول حياة شخصية معينة يجمع بين التاريخ والأدب القصصي.

وبالحديث عن الفن والأدب القصصي فحتما له تقنيات فنية خاصة به، لأنه يعتمد على الحقائق التي تصاغ في أسلوب أدبي، يستعمل فيه الخيال بقسط محدود وبما لا يتعارض مع عرض هذه الحقائق في حياة صاحبها ومن شأن هذا العمل أن يحدث متعة جمالية"

فالسيرة بهذا فن أدبي له وظيفة أخلاقية تتجلى في مختلف القيم العليا التي يعرضها الكاتب في قالب قصصي يجمع بين الحقيقة والخيال الفني ليقدم نموذجا إنساني يمكن أن يحتذى به

السيرة لا تركز على حياة الفرد فحسب بل تربطه بالمجتمع وبالفضاء الزمكاني "كفن يتوسل بالحكي للكشف عن التجربة الإنسانية في بعدها الفردي والاجتماعي، فيربط الذات بالزمان والمكان، ويجعل من الحياة نصا مفتوح على التأويل" لتكشف عن عمق التجربة وأبعادها المتعددة وتكون نصا مفتوحا يحمل في طياته خطابا تأويليا يتفاعل مع القارئ عبر الزمان...

فالسيرة بهذا فن أدبي له وظيفة أخلاقية تتجلى في مختلف القيم العليا التي يعرضها الكاتب في قالب قصصي يجمع بين الحقيقة والخيال الفني ليقدم نموذجا إنساني يمكن أن يحتذى به.

✓ أنواع السيرة:

تنقسم السيرة إلى :

أ- السيرة الذاتية:

هي التي يقدم من خلالها المؤلف حياته الشخصية – كلها أو جزء منها- ليقدم من خلالها تجربته الخاصة ومسار حياته وأهم أعماله

ومواقفه " مستعرضا مراحل تكويه الفكري والوجداني معتمدا على الصدق في التعبير أكثر من الدقة في الحدث "
والسيرة الذاتية "ضرب من الكتابة النثرية يحكي فيها الكاتب عن نفسه وعن نشأته ومراحل حياته الفكرية والنفسية والاجتماعية بأسلوب أدبي فني" فهي بهذا تجمع بين العرض الواقعي والأسلوب الفني الذي يمنح النص بعدا جماليا وطابعا مميزًا..
يرويها الكاتب نفسه مستخدما الضمير "أنا" وتكون عرضًا لتجربة شخصية ذات طابع ذاتي انطباعي، تأملي وفلسفي ...

ب- السيرة الغيرية :

هي السيرة التي يكتبها المؤلف عن شخصية أخرى مستخدما ضمير الغائب، مع التركيز على إنجازات الشخصية ودورها الاجتماعي والسياسي، وهي "عمل نثري طويل يتخذ من حياة بطلٍ محورا للأحداث، يتشابك فيه التاريخي بالأسطوري، والواقعي بالخيالي، ويهدف إلى تمجيد قيم الجماعة "[1]، وغالبا ما تقدم هذه السير بوصفها نماذج أخلاقية أو تاريخية يحتذى بها.

- ✓ نشأة السيرة و خصائصها:

نشأة السيرة:

نشأ فن السيرة في الأدب العربي ضمن سياق ثقافي شفهي، حيث ظهر الشعر أولًا، وبمحاذاته تطورت أشكال سردية ذات طابع ملحمي استمدت مادتها من الحياة اليومية، والوقائع التاريخية، والبيئة الطبيعية. وقد شكّلت السيرة الشعبية امتدادًا لهذا التقليد، إذ جمعت

1

بين خصـــائص الشـــعر الملحمي والحكايـــة الروائيـــة، وأصبحت شكلًا عربيًا أصيلًا لتصوير الحياة. ولم يكن هـذا الفن حكرًا على الثقافة العربيـة، بـل عُـرف في ثقافـات أخرى بأسماء مختلفة

احتلت السيرة مكانة مهمة في تراثنـا العـربي، والمتتبـع لتاريخ هذه السير يجد لها إرهاصات تضـرب منـذ القـدم عندما كـان العـرب يتنـاقلون مختلـف الأخبـار والأحـداث التي تحكي عن حروبهم و بطولاتهم التي عـرفت "بأيـام العرب" وما تناولتـه " من وقـائع حربيـة كـانت تـدور في الجاهلية بين القبائل العربية منهـا مـا ينحصـر في قبائـل الشـمال العدنانيـة أو في قبائـل اليمن القحطانيـة مثـل حروب الأوس والخزرج، ومنهـا مـا يقابـل بين العـدنانيين والقحطانيين ومنها ما وقع بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى كيومي الصفقة ذي قار ضد جيوش كسرى"

ومع قدوم الإسلام تغير مضـمون ومحتـوى السـيرة فقـد أكسبها الإسلام بعدا دينيا أخلاقيا وظهرت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي العصر الأموي ظهرت سـير أخرى تحدثت عن الفتوحـات الإسـلامية وأبطالهـا لتجمـع بين الوقائع الحربي والبطولة الفرديـة " سـيرة خالـد بن الوليد- عمرو بن العاص..."، أما في العصر العباسي فقد شهدت السيرة تطورا ملحوظا من حيث الطـول والبنيـة الســردية وتحــولت إلى فن شــعبي ضــخم عــبرت عن الوجـدان الشـعبي، امـتزجت بين الحقيقـة والخيـال من خلال شخصـياتها الخارقــة وأحــداثها المليئــة بالعجــائب والغــرائب والبطــولات ، كمــا كتبت بلغــة أقــرب إلى

العامية، ارتبطت في عصر التدوين بالسيرة النبوية " فقد مثلت سيرة ابن إسحاق "كتاب المبتدأ والمغازي" التي ضمنها ابن هشام في كتابه (السيرة النبوية) امتدادا للاتجاه القصصي في كتابة السيرة"

- ✓ **خصائص السيرة الشعبية** العربية:

تتميز السيرة الشعبية بجملة من السمات، أهمها:

- ارتباطها بالبيئة الاجتماعية والتاريخية.
- بطلها صاحب رسالة أخلاقية ينتصر للحق.
- اعتمادها على بنية أخلاقية إسلامية واضحة
- تصويرها للمرأة بوصفها عنصرًا فاعلًا ومحترمًا.
- لغتها السهلة المسجوعة القريبة من التداول الشفهي.
- توظيف الشعر بوصفه أداة حوار وصراع وتعبير نفسي.

- ✓ **نماذج من السير العربية :**
- ✓ **سيرة بني هلال: ملخص السيرة الهلالية**

تعد السيرة الهلالية من السير الشعبية الأكثر انتشارًا في الوطن العربي "فقد حظيت نصوصها باعتراف التاريخ الرسمي لكون متنها يشكل أحدثًا تارخية عاشتها القبيلة الهلالية، ونص السيرة القابل للإدماج والإضافة والتحوير ينتمي في كثير من مواضعه إلى الأدب العجائبي بما في ذلك الجغرافيا المتخيلة التي تخالف الجغرافيا التاريخية، وكذلك الأحداث الخارقة والعجيبة".

تضمنت السيرة مواقع أسطورية واشتملت على أحداث متعلقة بالسحر، والعين الحاسدة والأحداث الخارقة

للعادة مثل الغول، والثعبان ذي الرؤوس العشرة وغيرها...

تميزت السيرة الهلالية بطابع الجماعة من خلال إبرازها للبطولة الجماعية في تغريبة بني هلال، إذ ينعقد لواء البطولة في هذه التغريبة للجماعة الهلالية التي يمثلها كل من أبي زيد، ودياب بن غانم ومرعى، والجازية وغيرهم. وهم مرتبطون بهذه الجماعة التي تؤطر حركاتهم في المكان، وكان بروز الجماعة الهلالية بروابطها الأبوية سببا في تماهي بعض الجماعات بها، أي العصبية القبلية.

تنقسم السيرة الهلالية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: يصف تاريخ بني هلال في الجزيرة العربية، في اليمن ثم نجد، وتذكر من شيوخهم وفرسانهم جابر وجبير ابني المنذر الهلالي ، وقد رحل جبير بأمه إلى نجد وصار فيما بعد سلطانها ، ومن نسل جابر الأمير حازم والأمير رزق ، وكانا يحكمان في ناحية من نواحي اليمن ، وقد تزوج الأمير رزق بنت شريف مكة وولدت منه ولدا أسمر اللون أسماه بركات، وهو الذي لقب فيما بعد بأبي زيد .

أما **القسم الثاني** فتدور حوادثه حول رحلة بني هلال إلى نجد التي ألجأتهم إليها مجاعة أصابت موطنهم في اليمن. وتتحدث السيرة عن حروب دامت سنين في نجد بين فروع بني هلال.

وتدور حوادث **القسم الثالث** حول الرحلة الهلالية إلى الغرب، حيث رحل أبو زيد مع أتباعه إلى تونس ليبحث عن أرض خصبة لما حلت المجاعة بنجد، ثم اتصالهم

بالبربر وصراعاتهم مع الزناتي خليفة وذياب بن غانم، وقد انتهت بقتل الزناتي خليفة ، ثم اختلف الهلاليون فيما بينهم على قسمة أملاك الزناتي خليفة وثارت حرب بين أبي زيد وذياب انتهت بقتل ذياب أبا زيد.

وعن سبب هجرتهم إلى شمال أفريقيا تذكر تلك المصادر أن سنين قحط وجدب ثمان مرت عجافا على نجد جعلتهم يرتحلون طلبا للماء والكلأ. والمرء لا يسلم لتلك الروايات التي تذكر بقصة سيدنا يوسف – عليه السلام – والسبع العجاف التي تليها سبع يمطر فيها الناس ، فليس من اليسير القبول بأن الترحال طلبا للمرعى يجعل تلك القبائل تتجاوز الهلال الخصيب بكل خيراته وأنهاره ثم حوض النيل ودلتاه حتى تصل المغرب العربي 15. أما المجاعة التي تتحدث عنها المصادر فكانت بين 457-464 ه، أوان كان بنو هلال في صعيد مصر ، وهي مجاعة عمت معظم مناطق الخلافة الإسلامية ، ويبدو أنها سبب (تغريبة) بني هلال وقبائل عربية أخرى من مصر صوب تونس والجزائر وليبيا (تدعوها المصادر أفريقية) والمغرب العربي.

تمثل سيرة بني هلال نموذجًا فريدًا للسرد الشعبي العربي، إذ ظلّت تُروى شفهيًا لقرون قبل تدوينها، ما أتاح لها تعدد الروايات والنصوص. وقد حظيت التغريبة باهتمام خاص نظرًا لارتباطها بالهجرة الهلالية إلى شمال إفريقيا، وما صاحبها من صراعات تاريخية.

- ✓ **سيرة عنترة بن شداد:**

تتناول حياة عنترة بن شداد، أحد أشهر فرسان الجاهلية، حيث تمتزج البطولة بالغرام، وتبرز قيم الشجاعة، والوفاء، والتضحية. وتُصوّر الرواية مسيرة

عنترة من التهميش بسبب لونه ونسبه، إلى الاعتراف الاجتماعي من خلال بطولاته وحبه لعبلة.

قيمتها الفنية: تفتقر السيرة إلى الوحدة الفنية المحكمة، وتتعدد فيها العقد الثانوية، غير أنها تزخر بعناصر جاذبة أبرزها: لون عنترة حبه لعبلة تمجيد البطولة الاعتزاز بالحسب والنسب ويمتزج فيها النثر بالشعر، ويغلب عليها السجع والأسلوب السهل، مع تفاوت في الجودة الفنية. وقد شبّه بعض المستشرقين هذه السيرة بإلياذة العرب، لما تحمله من تصوير لحياة العرب، وإن كانت تختلف عن الإلياذة اليونانية في البناء الفني واللغة.

✓ المراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، مادة (سير)،، مج 4، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.
- عبد اللطيف محمد السيد الحريري،فن السيرة الذاتية الغيرية في ضوء النقد الأدبي، ط 1، 1996.
- عبد الفتاح كيليطو، الآداب والغرابة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتجليات
- محمود رمضان الجبور، سيرة بني هلال، بين الشفاهية والتدوين، الثقافة الشعبية، العدد 43، 2018
- آسيا جريوي، جماليات السرد العربي القديم، مطبوعة بيداغوجية، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خضير، بسكرة، 2022-2023م

- ضياء الكعبي، السرد العربي القديم الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل